ولكن العقاد قارىء نهم . . هذه هى خلاصة الموقف ، إن الفتنة باللغة التى تسمى صنعة أو بلاغة تنم عن ثقافة مختلفة اختلافا جوهريا عن ثقافة العقاد .

يقول شوقى فى هذه القصيدة :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا .. وتنحى لمنجل حصاد
تلك حمراء فى السماء وهذا .. اعوج النصل من مراس الجلاد

لقد علمتنا البلاغة أن نفتن بالتشبيه . يقول العقاد وهذه جناية على اللغة . إن القارىء للبلاغة يخيل اليه أن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية ، أو أن الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها . رأى العقاد أبشع الضعف فى هذا الموقف . اقرأ العقاد بشىء من المهل فسترى أنه يصف البلاغة وصفا باطنيا حين يقول إن شعراء الصناعة أو خدام البلاغة نظروا إلى الهلال فإذا هو أعوج معقوف فطلبوا له شبها ، وهو أغنى المنظورات عن الوصف الحسى لأنه لن يهرب فنقتفى أثره ، ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه . هذه العبارات القصيرة تعنى أن الولع بالتشبيه فى البلاغة ترجمان لخوف دفين يجب أن يستقصى . ولكن العقاد عجل ، وكذلك سائر النقاد يطلبون من العقاد أن يقول كل شىء وهم نيام مستريحون وإلا نقدوه وكروا عليه . لقد تعجب العقاد أكثر من مرة من شواهد البلاغة ، تعجب من هلال كالخلخال ، ولابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية ، تعجب العقاد من إعلاء الوهم الذى هو بمعزل عن الخيال فى حديث البلاغة عن التشبيه بوجه خاص . وكان يسخر من ابن المعتز الذى يجعل الهلال منجلا صنع من فضة وهو يحصد النجوم ، والنجوم نرجس . يقول العقاد ولا حصد هناك ولامحصود ، فماذا وراء هذا كله ؟ وجاء شوقى فقال إنه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى التشبيه الحسى ، لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب .

(٨)

وقد وجد العقاد فرصة سانحة ليقول إن البلاغة ومن سار على منوالها من الشعراء اختزلت الكلمات اختزالا قاسيا ، فالكلمات فى البلاغة العربية أشكال وألوان عارية ، ويظهر أن العقاد رأى فى هذه التعرية خوفا كامنا من الحياة أو خوفا كامنا من اللغة . وللعقاد عبارات مشهورة فى معنى التشبيه يتغنى بها النقاد ، ويرونها خير ماترك العقاد